العلم والدين في عصرنا[1]

د. أبو عمران الشيخ*

هذه المشكلة قائمة في الغرب منذ أكثر من قرن وقد ظهرت في المشرق الإسلامي منذ عشرات السنين: ما هي صلة العلم بالدّين؟ أو بعبارة أخرى هل ينسجم الدّين مع التقدم العلمي؟ هذا السؤال نجده في تيارات فكرية عديدة انتشرت غربا وشرقا تحت أسماء مختلفة ابتداء من القرن التاسع عشر على الخصوص منها **"الوضعية العلمية"** أو **"اللائكية"** أو **"فصل الدين عن الدولة"** أو **"العلمانية"** أو **"التقدمية"**. تلك التيارات بصفة عامة لها مواقف معروفة من هذه القضية تتلخص في رأيين أساسيين هما التناقض بين الدين والعلم أو التكامل بينهما. فأعرف بالرأي الأول ثم بالرأي الثاني وأحاول في النهاية أن أعبّر عن رأيي الخاص.

تناقض العلم والدين أو العلمانية الحديثة

لقد برزت فكرة التناقض بين العلم والدين عند الغربيين في القرن التاسع عشر وتبناها بعض المفكرين الذين جعلوا العلم هو الفلسفة والعقيدة والتقدّم، وهذا ما يسمّى بـــ: **"العلمانية"**. والعلم هنا له مفهوم محدد فهو العلم التجريبي وينحصر في الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء بصفة خاصّة. لماذا انتشرت هذه الفكرة عند الغربيين؟ ذلك لأنّ التصنيع تقدم كثيرًا وانتشرت الآلات وتطوّرت العلوم التجريبية وبرزت فوائدها بصفة ملحوظة. ومن ناحية أخرى كانت العلوم قد وجدت بعض العراقيل في تاريخ المجتمع الغربي قبل القرن التاسع عشر منها مواقف الكنيسة الكاثوليكية من كل تقدم فكري وخاصة عندما انشقت الكنيسة

---

1. نشر هذا المقال في مجلة الأصالة، العدد 3، جمادى الثانية 1391 هـــ الموافق لشهر أوت 1971م بعنوان: "التقدم العلمي والإيمان" ـ * د. أبو عمران الشيخ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

على نفسها وقامت الثورة الدينية الّتي تزعّمها المصلح الألماني "لوثر" Luther وقد وجّه هذا المصلح بعض التهم للبابا وللكنيسة الكاثوليكية لأنّها جمّدت الفكر. وممّا أكّد صحّة هذه الاتهامات فيما بعد موقف الكنيسة من العالم "غاليليو" Galilée العالم الفلكي الإيطالي الّذي اكتشف أنّ الأرض تدور حول الشمس وليس العكس. نشر هذه الفكرة بعد أن جرّبها وتيقن من صحّتها فحاكمته **محكمة التفتيش** المسيحية بدعوى أنّه تدخّل في شيء يمسّ الدِّين المسيحي -وقصّة المحاكمة مشهورة-. تراجع هذا العالم مرغمًا عن آرائه وكانت هذه كارثة كبرى في العالم الغربي وهو تدخّل الدِّين فيما لا يعنيه وكانت للكنيسة سلطة دينية وسلطة سياسية معًا وكانت لها صلة وثيقة بالحكومات. ولهذا قيل بحق إنّ الحضارة الغربية كانت مسيحية فعلاً ثمّ فقدت الكنيسة هذه السلطة شيئًا فشيئًا بعدما ظهرت ضدّها حركات كثيرة ولعبت هذه الحركات المعارضة دورًا خطيرًا في تاريخ الغرب ثمّ حدثت ثورات اجتماعية وسياسية وقفت في وجه الكنيسة الّتي كانت تعتمد على الطبقات الغنية وابتعدت عن الطبقات الشعبية المحرومة فثارت هذه الطبقات الاجتماعية على الكنيسة وتمرّد عليها العلماء والمفكّرون مثل "فولتير" Voltaire و"ديدرو" Diderot و"روسو" Rousseau وغيرهم.. إلى أن قامت الثورة الفرنسية في 1789 الّتي فصلت بين السلطة والدِّين وحاربت الكنيسة واستولت على ممتلكاتها..

لهذه الأسباب كلّها اعتقد جلّ المفكرين في الغرب أنّ العلم يتنافى مع الدِّين. فإذا أراد مفكّر أو عالم أن يتقدم علميًا أو أن يكتشف شيئًا فعليه أن يبتعد عن الكنيسة لأنّها عبارة عن تجميد للفكر وتسلّط على المفكرين وطغيان سياسي واجتماعي.. وبعد هذا ازدهرت الحركة الصناعية وتطوّرت الآلات واكتُشفت قوّة البخار ثم اختُرعت الباخرة ثمّ السكة الحديدية والهاتف وما إلى ذلك.. وهذه الاكتشافات العلمية جعلت الإنسان الأوربي يعتقد أنّ البحث العلمي هو كل شيء وأنّ الكنيسة الكاثوليكية أصبحت قديمة لا تأتي بطائل للمجتمع الأوربي وأدرك هذا الخطر بعض رجال الكنيسة فحاولوا أن يسايروا العصر ولكنّهم أخطأوا

في اختيار المناهج. فبدلاً من أن يدرسوا العلوم ويستنتجوا منها ما يسمح لهم بالدفاع عن عقيدتهم قد ذهبوا إلى محاربة العلوم بصفة عامة لأنّها مصدر الإلحاد أو العلمانية.. فكان ردّ المفكّرين عنيفًا ومن أشهر هؤلاء المفكّرين "أوغست كونت" Comte (Auguste) الفيلسوف الفرنسي المعروف الّذي أخذ عنه جلّ العلماء المتحررين وهو صاحب المذهب المشهور بالوضعية وعَمل الكثير من أتباعه على تطوير المذهب وانتشاره منهم المستشرق "أرنست رينان" Renan (Ernest) الّذي نشر دراسات في ابن رشد والرشدية وفي اللغات السامية وله أيضًا كتاب "مستقبل العلم".

وإذا درسنا التيارات العلمانية المعاصرة نجد فيها بعض الكتب الّتي تعتبر مثل الكتب المقدّسة ولكل تيار علماني كتبه ومفكروه يطول ذكرهم. تعتمد هذه التيارات بصفة عامة على العلوم التجريبية ويرى أصحابها أن الوجود الوحيد هو وجود المادة والعقل فقط. لكن هذه العلوم محدودة والعقل لا يمكن أن يصل إلى جميع الحقائق. هذا ما اعترف به بعض العلماء المعاصرين في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا. تعتني هذه العلوم التجريبية بالظواهر ولا تبحث عن مصير الإنسان أو عن معنى الحياة وما إلى ذلك من التساؤلات الفلسفية والدينية. ولاحظ ابن خلدون بحق "**أنّ العقل ميزان صحيح وأحكامه يقينية لا كذب لها غير أنّك لا تطمع أن تزن بها أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء أموره فإنّ ذلك طمع في محال**".

التكامل بين العلم والدين

إنّ الفكر الإسلامي لا يرى تناقضًا بين العلم والدِّين بل يرى التكامل بينهما إنّه **يميّز ما بين العقل والدِّين** ومعنى هذا أنّه يأتي بتعاليم دينية موجودة في القرآن الكريم وفي السنّة النّبويّة وفي التراث الإسلامي ويترك العلم للعلماء.

هناك فوارق كثيرة بين الظواهر العلمية الّتي يعتمد عليها العلم المعاصر وبين الغيبيات والأخلاقيات بصفة عامة. فالعلم التجريبي لا يستطيع أن يحدّد لنا معنى القيم الأخلاقية الّتي نعتمد عليها في حياتنا.

وفي الحقيقة تقدمنا علميًا وتأخرنا أخلاقيًا.. فأبادت القنبلة الذرية الآلاف من سكان مدينة **هيروشيما** ووصل الأمريكيون إلى القمر واضطهدوا الأقليات في بلادهم وفي هذا المعنى لاحظ العالم السويسري بينيه وهو أستاذ الفيزياء في جامعة جنيف "**أنّ العالم الفيزيائي لا يستطيع في الغالب أن يفكّر في مشاكل الإنسان وحاجاته النفسية لأنّه يعيش بين أدواته ويفكّر في بعض النتائج المحدودة**". كثرت التخصصات الفرعية في مجال العلوم. ففي الفيزياء مثلاً هناك الفيزياء الذرية وفيزياء الجوامد وغير ذلك، والعالم لا يعتبر مَن يسير على غير منهجه ويعتقد أنّ الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة إلاّ بحواسه وذكائه. يرى أنّ العلم المعاصر شيء والدِّين شيء آخر وهذا صحيح إلى حد بعيد وإنّما هناك تكامل بينهما بحيث إنّه لا يمكن أن يتجاهل الأوّل الثاني.

إنّ مشاكلنا العقلية أو النفسية أو العقائدية لا يمكن أن يسيطر عليها العلم وحده لأنّه يقتصر على مادته فقط. هذا ما يعترف به العالم المعروف الأمير "دي بروي" De Broglie وهو من علماء الفيزياء البارزين ونال جائزة نوبل في الفيزياء فقال: "**إنّ العلم الآن لا يمكن أن يصل إلى اليقين في جميع المجالات**" وقد بيّن هذا أيضًا الفيلسوف "باشلار" Bachelard (Gaston).

إنّ الحقائق العلمية نسبية فقط. أمّا الحقائق الأخلاقية والدينية فهي مطلقة وهذا ما جعل المفكّر المتديّن يقول إنّ العلم ضروري ولكنّه لا يكفي وحده لسعادة البشرية. والمهم أن نضع الميزان بين الجانبين العلمي والديني فتكون لنا حضارة إنسانية يتحكّم فيها الإنسان ويتأمّل في مصيره محاولاً دعم الصلة بين العلم والكون والخالق. إذن لا يمكن فصل العلم عن الأخلاق والدِّين وإلاّ وقعنا في حضارة تقنية غير إنسانية.